

مجمع كفتارو وتوظيف عمائم التصوف في خدمة الجلاد

د. محمد أبو سلمان الشامي - سوريا

في حضرة الزاهد وظلّ السيّاف

لم تكن العلاقة بين خلوة المتصوف وقصر السلطان في التاريخ الإسلامي بمنأى عن التجاذب والالتباس، غير أن النموذج السوري الحديث نقل هذا الالتباس من دائرة المناورة إلى مستوى التبعية العضوية وهندسة الإسلام الوظيفي.

فالصدام التاريخي بين النظام السوري البعثي الملحد ذي الخلفية النصيرية والغالبية السنّية ليس مجرد خلاف سياسي عابر، بل كان انفجارًا محتومًا لتناقض وجودي؛ إذ وجد السوريون أنفسهم أمام تركيبة تجمع بين الإيديولوجية البعثية العلمانية الراديكالية التي ناصبت الدين العداء وجرّدته من حضوره المجتمعي، والعمق الطائفي الذي أحكم قبضته على مفاصل الدولة والجيش والأمن.

وحين تفجرت المواجهة المفتوحة أواخر السبعينيات مع قوى المجتمع من جماعة الإخوان المسلمين وكبار العلماء المستقلين والنخب المدنية والمهنية أدرك النظام حاجته الماسة إلى غطاء ديني محلي يكسر عزلته ويمنحه شرعية مفقودة، فكان الرهان على عمامة الشيخ أحمد كفتارو ومجمعه، لتبدأ أخطر صفقة تدجين ديني في تاريخ سوريا الحديث، حيث تم استبدال استقلالية المنبر بوظيفة التبرير، ورهن محراب الشريعة لحساب أجهزة السلطة.

ففي دمشق، وتحت قبة جامع أبو النور -الذي تمدد ليغدو مجمع الشيخ أحمد كفتارو- تجلّت واحدة من أخطر تجارب تدجين الدين واستثماره حيث استُبدلت سبحة الذكر بسوط التبرير، وتحولت خرق التصوف الناعمة إلى أردية وقاية تستر عورات نظام استبدادي لا يقيم وزنًا للمقدس إلا بمقدار ما يخدم بقاءه.

لم تكن المسألة مصادفة دعوية أو انزلاقًا ظرفيًا، بل كانت إستراتيجية ممنهجة صاغتها أجهزة أمن النظام السوري منذ ستينيات القرن الماضي، واستقرت أركانها بعد زلزال الثمانينيات في حماة حيث قايضت السلطة الشرعية السياسية بالتمكين المؤسسي، مانحةً عمامة كفتارو تفويضًا حصريًا باحتكار المشهد الديني وتوجيهه، مقابل تفريغ التدين من أي نزعة تحررية أو حس نقدي في وجه الظلم. هكذا، جرى استدعاء مفاهيم طاعة ولي الأمر، ودرء الفتنة، والصبر على البلاء، ليس كقيم إيمانية سامية، بل كمسكنات سياسية تضمن خضوع الشارع، وتصنع وعيًا مشلولاً يرى في مقاومة الجلاد خروجًا عن الملة، وفي صمته عن المظالم قمة الزهد والتقوى.

أولاً: بذور التحالف التاريخي وتأسيس الإسلام الرسمي

لم يكن صعود مجمع الشيخ أحمد كفتارو إلى سدة المشهد الديني في دمشق نتاج حراك علمي طبيعي، ولا صدى لإجماع فقهي تقليدي في حواضر الشام، بل كان هندسة سياسية واجتماعية بالغة الدقة، نسج خيوطها نظامُ البعث الحاكم، ورسّخ أركانها حافظ الأسد لترويض الحقل الديني

السني، وكسر شوكة النخب الدينية المستقلة التي طالما شكّلت عصب المعارضة المدنية في حلب ودمشق.

انقلاب في محراب الإفتاء

بدأ أول فصول هذا التحالف الإستراتيجي في خريف عام ١٩٦٤، حين وجدت القيادة البعثية الفتية نفسها في مواجهة احتقان مجتمعي تقوده بيوتات دمشق الدينية العريقة الملتفة حول رموز مستقلة ذات امتداد شعبي وازن، ولنزع فتيل هذا النفوذ، سعت السلطة إلى إحكام قبضتها على منصب المفتي العام للجمهورية، فتدخلت الأجهزة الأمنية والعسكرية في كواليس الانتخاب لترجيح كفة أحمد كفتارو على حساب منافسه الأبرز الشيخ حسن حبنّكة الميداني، في واقعة فارقة حُسمت بفارق صوت واحد.

لم يكن اختيار كفتارو اعتباطيًا، فالرجل القادم من خلفية صوفية نقشبندية في حي الأكراد بركن الدين، لم يكن ينتمي إلى النواة الصلبة للعائلات الأرستقراطية الحاكمة للمشهد الديني الشامي، مما جعله الحليف النموذجي لمشروع البعث الهادف إلى تفتيت هيبة البورجوازية الدينية، واستبدالها بقيادات دينية بديلة تدين بمكانتها ونفوذها بالكامل إلى مظلة السلطة وشرعيتها السياسية.

صفقة ما بعد دماء الثمانينيات

بلغ التحالف ذروة تماسكه عقب المواجهات الدامية بين النظام وجماعة الإخوان المسلمين في مطلع ثمانينيات القرن الماضي، والتي انتهت بأحداث حماة عام ١٩٨٢. وفي تلك اللحظة الحرجة من تاريخ البلاد، وبينما كانت المعتقلات تبتلع آلاف المعارضين والمشايخ المستقلين اختار مجمع كفتارو الانحياز الصريح لمربعات السلطة وتجريم أي حراك مناهض باعتباره فتنة وشقًا لعصا الطاعة.

أثمر هذا الموقف عن إبرام صفقة غير معلنة صاغت واقع التدين السوري لعقود لاحقة، وكان من أهم بنود هذه الصفقة التغطية الشرعية للنظام من خلال منح المجمع غطاءً دينيًا سنيًا متماسكًا لحكم حافظ الأسد من قلب العاصمة، وتحصين الجبهة الداخلية من أي تعاطف شعبي مع المعارضة عبر توظيف المنابر والدروس الوعظية لإشاعة ثقافة الامتثال السياسي، ومن بنود الصفقة التمكين المؤسسي للمجمع، حيث نال كفتارو في المقابل تفويضًا مطلقًا بتحويل مسجده في حي الصالحية (جامع أبو النور) إلى إمبراطورية دينية تتمتع باستقلال مالي وإداري نسبي، وتضم شبكة معاهد شرعية عابرة للحدود تخرّج الآلاف من الطلبة المحليين والوافدين تحت عين الأجهزة الأمنية ورقابتها.

الواجهة الدينية للدولة الأمنية والاعتدال المصنّع

ثم تجاوز دور المجمع حدوده المحلية ليصبح أحد أهم أدوات القوة الناعمة في يد السياسة الخارجية للنظام، إذ وظّف الأسد عمامة كفتارو في رحلات مكوكية شملت عواصم غربية وشرقية تحت شعارات حوار الأديان، والتقريب بين المذاهب، والتصدي للمؤامرات الخارجية. رسم هذا الخطاب صورة ذهنية لدى الرأي العام الدولي تُصوّر النظام راعيًا حصريًا لنموذج الإسلام المتسامح والمنفتح في مواجهة شبح الأصولية.

ثانيًا: الآليات الأيديولوجية لتدجين الخطاب الصوفي

لم يكن تحالف مجمع كفتارو مع أجهزة الحكم مجرد تواطؤ سياسي ظرفي يُدار خلف الأبواب المغلقة، بل استلزم بناء ترسانة مفاهيمية، وإعادة تشكيل دقيقة للمنظومة العقدية والروحية داخل الفضاء الصوفي، حيث أُعيد تأويل التراث الصوفي الغني بقيم التحرر ومجاهدة النفس، ليغدو تقنية نفسية واجتماعية متكاملة لإنتاج الخضوع، وشل الإرادة الجمعية عن مساءلة المستبد.

إسقاط هيبة الشيخ والمربي على رأس الهرم السياسي

قامت أولى آليات الترويض على استثمار البنية التراتبية الصارمة التي تحكم علاقة المريد بشيخه في الطريقة النقشبندية، إذ تُعد قاعدة «كن بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل» أحد أركان التربية الروحية. عمد خطاب المجمع إلى توسيع نطاق هذا الخضوع الميتافيزيقي خارج حدود الخلوة والزاوية، وإسقاطه تدريجيًا على السلطة السياسية.

جرى تقديم الحاكم بوصفه ولي أمر يملك من الإحاطة بالأمور وخفايا التدبير ما يقصر عنه فهم العوام، فصارت معارضة سياساته أو مجرد التساؤل عن شرعية قراراته ضربًا من سوء الأدب، وسلوكًا منافيًا لمقتضيات السلوك والتسليم. وبذلك تحول مريد التكية تلقائيًا إلى مواطن ممتثل لا يرى في القهر والبطش سوى حكمة مستترة تستوجب الصبر والدعاء.

تعطيل فريضة الاحتساب والانكفاء داخل الذات

نجح المجمع في تجريد الفقه الصوفي من امتداده الاجتماعي والسياسي، وتحديدًا فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث تمت حياكة خطاب وعظي شديد

الكثافة يختزل المجاهدة بأكملها في الجهاد الأكبر (تزكية النفس الفردية وتطهير الباطن)، مع تصوير أي انشغال بالشأن العام الاجتماعي أو السياسي بأنه دنس دنيوي ونوع من حب الجاه والرئاسة.

أُغرقت القواعد الجماهيرية بأدبيات الصبر على البلاء والرضا بالقضاء والقدر، مع تصوير الاستبداد وفساد السلطة كعقوبة ربانية مقدرة لا تُرفع إلا بكثرة الذكر والاستغفار في البيوت، هذا الانكفاء القسري نحو الداخل حوّل الطاقة المحتملة للشارع إلى طقوس زهد سلبي، وفرّغ الفضاء الديني من أي قدرة على إنتاج خطاب متوازن في مواجهة تغول الأجهزة الأمنية.

تسليع الاعتدال والتسامح كدرع دبلوماسي للنظام

لم تقتصر هذه الهندسة على الاستهلاك المحلي، بل أُعيدت صياغة مفاهيم المحبة، والتسامح، وحوار الحضارات لتتحول إلى سلعة سياسية رابحة في المحافل الدولية. برع مجمع كفتارو في تقديم نفسه كواحة للإسلام الصوفي المنفتح في بحر من التطرف الإقليمي، جاعلاً من هذه الواجهة الأخلاقية غطاءً دبلوماسيًا يُبيّض سجل نظام إجرامي متهم بارتكاب أبشع الانتهاكات، حيث كانت المؤتمرات والزيارات الخارجية التي تنظمها كوادر المجمع تنتهي دومًا إلى تسويق أطروحة واحدة: أن النظام القائم في دمشق هو الضامن الوحيد للتعايش الديني ولجم التيارات الراديكالية، وهكذا جرى ابتذال مفاهيم التصوف لتصبح مادة علاقات عامة تبرر قمع بعض الفئات الدينية المعارضة باسم مكافحة الفوضى والإرهاب.

ثالثًا: اختبار ٢٠١١ وانكشاف الوجه الحقيقي

مع اندلاع الثورة السورية في ربيع عام ٢٠١١ وخروج الآلاف من باحات المساجد، وُضعت المنظومة الدينية التي رعاها النظام لعقود أمام امتحانها التاريخي الوجودي، حيث سقطت مساحيق الاعتدال المصنّع، وتلاشت منطقة المناورة الرمادية التي كان مجمع كفتارو يختبئ خلفها، إذ لم تعد المسألة تحتمل التوفيقية الدعوية، بل طالب القصر الجمهوري حلفاءه بالوفاء الكامل لاستحقاقات صفقة التمكين، وتحويل المنابر إلى متاريس دفاعية في وجه الشارع المنتفض، فسارع المجمع وقادته من ورثة كفتارو وتلامذته إلى تبني الرواية الأمنية بحذافيرها فاختُزلت مطالب الجماهير المقهورة في توصيف الفتنة الملعونة والمؤامرة الكونية التي تستهدف النيل من محور المقاومة والعيش المشترك.

ومن فوق منبر جامع أبو النور ومختلف المنصات التابعة للمجمع، جرى ضخ سيل من الفتاوى والمواعظ التي تحرّم الخروج على الحاكم، وتعتبر التظاهر السلمي معصية كبرى وشقًّا لعصا الجماعة، ولم يكتفِ خطاب المجمع بالنصح السلبي أو حث الناس على التزام البيوت، بل شُرعنت إجراءات الأجهزة الأمنية في مواجهة المتظاهرين حيث صُوّر المنتفضون كأدوات خائنة تنفذ أجندات خارجية تسعى لنشر الفوضى وضرب الاستقرار الديني، مما وفّر غطاءً فقهيًا ونفسيًا مريحًا لآلة القمع لتباشر القتل والاعتقال دون أدنى وازع أخلاقي.

تدنيس المحراب في سبيل العرش

انتقل دور المجمع من التنظير الوعظي إلى الانخراط الميداني المباشر في «البروباغندا» العسكرية للنظام حيث شهدت أروقة أبو النور ومؤسساته إقامة فعاليات تعبوية تستضيف ضباط الجيش والأمن، وتسبغ عليهم ألقاب حماة الديار والمقدسات، بل وصل الأمر ببعض رموزه إلى التردد على الثكنات العسكرية لشد أزر الجنود، والدعاء لعملياتهم الميدانية بالتمكين والنصر في مشهد يختزل ذروة السقوط القيمي للعمامة المؤدلجة، وتحولت المنابر التي بُنيت على ذكر الله ومحبة الخلق إلى منصات تبرر حصار المدن وتدمير الأحياء السكنية تحت لافتة تطهير الوطن من الإرهابيين والتكفيريين.

لقد جرى استدعاء المفردات الجهادية المقدسة وتفريغها من سياقها القرآني لتُوظف في صراع السلطة ضد شعبها فأصبح الدفاع عن بقاء الحاكم واجبًا شرعيًا ودستوريًا، والضحايا الذين يسقطون بالبراميل المتفجرة مجرد حواضن للخروج والتمرد.

تصدع الجدار الداخلي وتهاوي الهيبة الشعبية

شكّل هذا الانحياز الفجّ صدمة مروعة في نفوس الآلاف من المريدين، لا سيما من جيل الشباب الذين عاينوا بأعينهم حجم التناقض الصارخ بين دروس الرقائق والتزكية ومواقف التبرير للدم، وهكذا سقطت ورقة التوت الأخيرة عن تجربة التصوف الوظيفي، إذ كشفت دماء عام ١١٠٢ وما بعده أن العمائم التي باعت استقلالها للسلطان لن تتردد في النهاية عن توقيع صكوك الذبح بحبر الفتاوى والمواعظ.